المحاضرة العاشرة: المنهج النقدي عند كانط

1/- مفهوم النقد عند كانط:

يمكن وصف النقد في العصر الحديث بأنه منهج للفحص والتمييز بين ما هو حقيقي وما هو مزيف في الفكر، وصار بالإمكان الحديث عن الفكر النقدي الذي عرفه لالاند: " يطلق على الفكر الذي لا يأخذ إقرار دون التساؤل أولا عن قيمة هذا الإقرار، سواء من حيث مضمونه (نقد داخلي) أو من حيث أصله (نقد خارجي)"[1] اتخذ الاتجاه النقدي أداته الإجرائيى في النظر، والتفكير من تلك المنظومة الفكرية، التي تميزت بقدرة على طرح الأسئلة الفلسفية التي كان يطرحها القرن الثامن عشر الأوربي، بدلالاتها المختلفة. فقد مثل النقد حينذاك نقضا جذريا للأسس العامة، ويقر كانط أنه سمة العصر الحديث " إن عصرنا هو، بخاصة، عصر النقد الذي يجب أن يخضع كل شيء له"[2] وقد آمن كانط بمثل هذه المهمة، وقد استخدم مصطلح النقدية* Critisism لوصف فلسفته المثالية.

فمع كانط تشكل مفهوم جديد للنقد يختلف عن المعنى السابق له أي لدى فلاسفة التنوير: فلم يعد يعني الدحض أو إحصاء النقائض والكشف عن الأخطاء، والعمل على تصحيحها. إنّه غير ذلك كله، هو عملية معقدة تستهدف بناء ما هو ممكن من المعارف، بمعنى آخر إنه العمل من أجل الكشف عن القول الذي لا أساس له، والدلالة على مواطن ضعفه وسطحيته

---

[1]- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل احمد خليل وإشراف أحمد عويدات، المجلد الأول A-G منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001، ص 238.

[2]- امانويل كانط، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة، مركز الانماء القومي، لبنان، بيروت، 1988، ص 26.

* النقدية Critisisme: بالمعنى الواسع، تقال نقدية على كل عقيدة، ترى أن العقل يشكل المعرفة، ويكونها بمقتضى أشكال أو مقولات خاصة به، وتاليا تكون في آن واحد ناجعة وقويمة في حدود الاختبار. يقول ايسلر: إن النقدية تقال، منذ كانط، على كل نزعة فلسفية تقوم على جعل نظرية المعرفة الأساس لكل مبحث فلسفي، لكنها تقال بخاصة، على مذهب كانط ذاته" أنظر: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول A-G، مرجع سابق، ص237.

[1] وقد صرح كانط عند صدور مؤلفه "نقد العقل الخالص معتبرا أن هدفه من هذا العمل هو إحداث تغيير جذري في طريقة التفكير بهذا تأصل مفهوم النقد مع كانط وأصبحت شعارا للفلسفة ، ومنهجا لها، كما أصبح جوهر التفلسف الذي يؤسس لكل تجربة ممكنة نظرية أو عملية.

2/- المسائل النقدية الكانطية:

إن المادة الخام الأساسية التي ينصب عليها النقد الكانطي هي المعرفة الإنسانية بوجه عام. يقول:" ولعلّ ذلك يكفي عن التمامية في بلوغ كل هدف، والتفصيل في بلوغ جميع الأهداف التي تضعها أمامنا، لا أي خطة تعسفية بل طبيعة المعرفة نفسها، كمادة لبحثنا النقدي"[2]. إلا أنّ الأصل في ظهور هذه الفلسفة هو تساؤل كانط عن طبيعة المعرفة البشرية: كيف ندركها، ماهي أبعادها وماهي حدودها؟ أي اخضاع العقل البشري للنقد والتمحيص، وتبيان حدود استخدماته المشروعة من حدوده غير المشروعة، ضرورة امتحان قدراته المعرفية.

فمملكة العقل (أي الميتافيزيقا) تبدو خربة وخاوية بفعل الحروب الداخلية والغزوات المتلاحقة، ولخلاص الميتافيزيقا لا بد من محاولة جديدة ومختلفة، لا بد من تقديم العقل إلى امتحان العقل نفسه، أي لا بد من نقد العقل. من هنا تكمن مشكلة العقل في " كيف يمكن للأحكام التأليفية القبلية أن تكون؟ بهذا ينشئ محكمة تضمن له دعاويه المحقّة، لكن تخلصه في المقابل من كل الادعاءات غير المؤسسة، لا بقرارات تعسفية، بل بقوانين خالدة وثابتة، هذه "المحكمة هي نقد العقل المحض نفسه"[3] يعني يجب التوقف طويلا عند سلطة العقل ، والنظر بإمعان في مواطن الأخطاء التي جعلته يضل الطريق المؤدي يقينا إلى العلم الحقيقي.

---

[1] -حسن حنفي وآخرون، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، ط1، ص41.

[2]- امانويل كانط، نقد العقل المحض، مرجع سابق، ص 27.

[3]- امانويل كانط، نقد العقل المحض، مرجع سابق، ، ص 26.

لذا فالنقد عند كانط يدلّ على أن العقل الإنساني يحاكم ذاته بذاته، قصد تبيان مكوناته المعرفية الخالصة، والتمييز بين مطا لبه المشروعة، ومزاعمه غير المشروعة. ولنا أن نقارب الرؤية النقدية الحقيقية لكانط بخصوص النقد في قوله: "إلا أني أفهم بذلك نقدا، لا للكتب، والسساتيم، بل لقدرة العقل بعامة بالنسبة إلى جميع المعارف التي يمكن أن ينزع إليها بمعزل عن أي تجربة، وبالتالي، الفصل في مسألة إمكان أو لا إمكان الميتافيزيقا بعامة، وتعيين مصادرها ونطاقها وحدودها، وكل ذلك بناء على مبادئ"[1] وقد كانت انطلاقته المميزة من تلك الخطوة الأساسية التي وضعها على رأس الخطوات التأسيسية لمشروعه الفلسفي النقدي إذ تقوم على الأسئلة الثلاث:

ماالذي يمكنني أن أعرفه؟ ما الذي ينبغي أن أعمله؟ وما الذي أستطيع أن أمله؟[2]

فهذه الأسئلة هي الموضوعات التي يعالجها العقل، وتمثل مايلي: المشكلة المعرفية، والمشكلة الخلقية، والمشكلة الدينية. الأولى منها تخص نقد العقل النظري، والثانية نقد العملي فقط، وأما الثالثة فتخص النظري والعملي معا. هذا المشروع النقدي المتكامل، يبدأ بنقد العقل الإنساني في المجال النظري ليصل في النهاية إلى بناء الميتافيزيقا على أسس أخلاقية، وهو مجال عملي بحث، لتصبح الأخلاق مفتاحا أساسيا في فهم الفلسفة النقدية.

أ-المشكلة المعرفية (محاولة تأسيس الميتافيزيقا):

تتمّ محاكمة العقل ومساءلته في سياق الصراع المذهبي القائم بين العقليين والتجريبيين* حيال نظرية المعرفة. لم يتساءل ديكارت في دراسته للمنهج عن قيمة العلم، ومصدره، ونوع

---

[1]- المرجع نفسه ، ص ص26-27.

[2]- امانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا يمكن أن تصير علما متبوع بأسس ميتافيزيق الأخلاق، ترجمة نازلي إسماعيل حسين ومحمد فتحي الشنيطي، موفم للنشر،1991، ص 11.

* التيار الأول: تيار النزعة العقلية، ويمثله ديكارت، وليبنتز، وفولف، وهو يرى أن الحقائق المتعلقة بالطبيعة وبما فوق الطبيعة إنما تدرك بالعقل وحده،، مستقلا عن التجربة الحسية. والثاني: تيار النزعة التجريبية، ويمثله الفلاسفة البريطانيون، لوك، وباركلي، وهيوم، وهو يرى أن التجربة الحسية هي ينبوع كل الحقائق هي ينبوع كل الحقائق والتصورات.

المعرفة الممكنة، إلا أن كانط يثير هذه المشكلة النقدية والتي تنقسم إلى أربع مسائل:

– " كيف تكون الرياضة البحثة ممكنة؟

–كيف تكون علم الطبيعة المجرد ممكنا؟

–كيف تكون الميتافيزيقا بعامة ممكنة؟

–كيف تكون الميتافيزيقا بوصفه علما، ممكن؟"[1].

تبيّن لكانط أن المعرفة الرياضية تتقدم باطراد ويقين. فكيبلر نمى الميكانيكا السماوية، وجاليليو نمى الميكانيكا الأرضية، ونيوتن في النصف الثاني منه وضع قوانين الحركة وقانون الجاذبية، فأدّى هذا كله إلى تطور هائل في تقدم الفيزياء والفلك والرياضيات، لم يناضره تطور مماثل في الميتافيزيقا، لذا تساءل: هل يمكن للميتافيزيقا أن تصبح علما قائما على أسس يقينية ويتقدم باستمرار كما هو الشأن في الفيزياء والفلك والرياضيات؟[2].

هذا هو الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله النقد الكانطي، الفصل في مشكلة قيام الميتافيزيقا أو استحالة قيامها. وفيه يحاول أن يبيّن فساد كلا التيارين: النزعة العقلية والنزعة التجريبية: الأولى لتجاوزها حدودها، والثانية لقصورها. الأولى تجاوزت حدود العقل وطاقاته فادعت إمكان الوصول إلى إثبات كيانات لا يمكن بطبعها أن تكون موضوعات للتجربة، مثل : الله، الحرية، خلود النفس. والثانية قصرت باقتصارها على معطيات التجربة الحسية ولم تدرك وجود مبادئ متعالية هي الإطارات التي لا بدّ لمعطيات الحس الدخول فيها كي تصبح مدركات.

وتبيّن لكانط أن الجواب عن هذا السؤال يكمن في الأحكام التركيبية القبلية (قبلية لأنها سابقة ومنفصلة عن التجربة فهي ضرورية، تركيبية فإنها تأتي دائما بمعرفة جديدة تزيد عما في مفهوم الألفاظ). ومن هنا رأى كانط أن المشكلة تنحصر في السؤال التالي: كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة؟

---

[1]– امانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا يمكن أن تصير علما متبوع بأسس ميتافيزيقا الأخلاق، مرجع سابق، ص 27.

[2]– عبد الرحمن بدوي، امانويل كانط، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1977، ص ص 167–168.

ورأى كانط أن مشكلة الميتافيزيقا هي مشكلة أي علم: كيف أن تكون مبادئها ضرورية وكلية من ناحية، ومن ناحية أخرى تتضمن علما بالواقع وتزود الباحث بإمكان المزيد من المعرفة أكثر مما يعلم؟. يجيب كانط بأنها تكون ممكنة إذا أمكن بيان أن المعرفة الإنسانية تعتمد على تصورات ليست تجريبية الأصل، وإنما أصلها في الذهن الإنساني باعتبار أنّه لا يمكن تأسيس علم إلا بتعاون التجربة الحسية، والإدراك العقلي التي تؤدي إلى المعرفة الصحيحة، كما أن التجربة تقدم معطيات منفردة والعقل يؤلف بينهما ويرتبها ويحولها إلى تصورات لموضوعات، وعلى العموم فإن كانط يرى أن" كل معرفتنا تبدأ بالحواس وتنتقل منها إلى الفاهمة وتنتهي في العقل"[1] ومعنى هذا أن الذات العارفة لم تعد مكا هو شأنها في الميتافيزيقا التقليدية مرآة للأشياء والموضوعات، "وهذا القلب المنهجي هو ما ينقص الميتافيزيقا لتصير علما"[2]. لقد أراد كانط أن يضع الحدود المنهجية للعقل النظري حتى يضبط استدلالاته، ويحميه من الانزلاق، والخداع من جهة، ويمهد لإقامة ميتافيزيقا نظرية خاصة به من جهة أخرى.

ب-المشكلة الخلقية(ميتافيزيقا الأخلاق):

لقد اهتم كانط في نقد العقل النظري بالرجوع إلى الشروط التي تجعل العلم ممكنا، ففي نقد العقل العملي ينبهنا أننا لن نستطيع أن نرقى إلى الشروط التي تجعل الأخلاقية ممكنة. والسبب في ذلك أن علم الأخلاق ليس هو الذي يؤسس الأخلاقية، وإنما يعتبر هذا العلم لاحقا للأخلاقية باعتبارها واقعة[3]. وبالتالي، يتخذ كانط نقطة بدايته انطلاقا من الإرادة الخيرة التي يعتبرها الدعامة الأساسية لكل أخلاقية، معارضا بذلك كل النظريات الأخلاقية التي ترى أن فكرة الخير هي دعامة الأخلاق.

---

[1] - امانويل كانط، نقد العقل المحض، مرجع سابق، ص 187.

[2] - امانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة العربية،1970، ص 19.

[3] - زكريا إبراهيم، كانط أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، ص 132.

يرى كانط أن الفعل الأخلاقي يستمد قيمته الأخلاقية من الإرادة الطيبة فلا مصدر ممكن لتأسيس القيمة الأخلاقية غير الإرادة الطيبة، يقول كانط في القسم الأول من كتابه "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق" " من بين كل ما يمكن تصوره في العالم، بل بوجه عام خارج العالم ليس ثمّة ما يمكن اعتباره خيرا دون تحفظ، إن لم يكن الإرادة الخيرة"[1] فهي تلك الملكة المشرعة لأفعالنا العملية، والتي يمكن أن نسميها العقل العملي " الذي يشرع في ميدان العمل الأخلاقي على العكس وظيفة ماثلة في اقتلاع عملنا من التبريرات الحسية، والعاطفية ليخصه بأسره مبادئ أخلاقية سابقة للتجربة"، إذا فالعقل العملي هو العقل نفسه، ولكن مجاله التوجيه العملي لأعمالنا وأفعالنا الأخلاقية، بعيدا عن أي تجربة حسية أو عاطفية. ويجعل كانط من جهة أخرى الواجب أساس هذه الإرادة الخيرة ذلك أن هذه الإرادة لا تعمل هكذا مشرعة لأفعالنا إلا بناء على نداء الواجب، ولا تخضع لأي قانون سوى القانون الأخلاقي، وهي لا تكون خيرة إلا لأنها تفعل من أجل الواجب واحتراما له، ويصلح أن يكون قانونا أخلاقيا أو أمرا مطلقا "الفعل الذي يؤدي بمقتضى الواجب يستمد قيمته لا من الهدف الذي يلزم تحققه به، بل من القاعدة التي يتقرر تبعا لها، فهو لا يعتمد على وقع موضوع الفعل، بل على مبدأ الإرادة وحده ذلك المبدأ الذي بمقتضاه تم الفعل دون ما اعتبار إلى أي موضوع من موضوعات الرغبة"[2].

إن الواجب الأخلاقي هوما يقرر وفقا لقاعدة، فإن هذه الأخيرة هي ما يمكن أن نسميه القانون الأخلاقي، وهو القانون الذي يقول إن الفاعل الأخلاقي يتصرف أخلاقيا إذا سيطر العقل على كل ميوله، فإن هذا قانونا، فيجب ألا يكون له استثناء مهما تكن الظروف، بل يجب أن يصدق على الجميع. أما الأوامر المطلقة التي لابد لإرادتنا من أن تراعيها في أفعالنا، ويحصر كانط هذه الصيغ في قواعد أساسية ثلاث:

---

[1]- امانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة متبوع بأسس ميتافيزيقا الأخلاق، مرجع سابق، ص 221.

[2]- المرجع نفسه، ص 232.

أ- **قاعدة التعميم:** ويصوغها كانط على النحو التالي "افعل فقط طبقا للقاعدة التي تجعل في إمكانك أن تريد لها في عين الوقت أن تغدو قانونا كليا"[1]. وهذه القاعدة الأساسية التي اعتبرها كانط مبدأ لسائر القواعد الأخرى إنما تعنى أن المحك الأوحد للسلوك الأخلاقي هو إمكان تعميمه من غير تناقض.

ب- **قاعدة الغائية:** وتتردد في صيغة أمر مطلق على النحو التالي" افعل على نحو تعامل معه الإنسانية في شخصك كما في شخص غيرك، كغاية دائما وفي نفس الوقت، لا كمجرد وسيلة"[2]. ومعنى هذا أن الأمر المطلق كقانون أخلاقي لا يتعلق بغاية شخصية ذاتية بل يتعلق بفكرة الإنسانية بوصفها غاية في ذاتها.

ج- قاعدة الحرية: ويمكن صياغة هذه القاعدة على النحو التالي " افعل كما لو كان يلزم أن تقيم قاعدة فعلك في قانون كلي للطبيعة"[3]. وهذه القاعدة هي بمثابة مركب يجمع بين القاعدتين السالفتين، لأنها تنص على ضرورة خضوع الإنسان للقانون باعتباره هو مشرعه

3/- خصائص المنهج النقدي عند كانط:

لقد دخل كانط في المرحلة النقدية وهو مزود بمنهج جديد ومذهب نقدي خاص به، يقول في ذلك: " لكن هذه المقدمات ستبيّن لنا جيدا أنّه يوجد هناك علم جديد تماما لم يسبق لأحد من ذي قبل ولا خطرت فكرته، على بال أحدهم قبلنا"[4].

أ- طبيعة المنهج وخطواته:

اتخذ المنهج النقدي عند كانط طابع المرحلية في بناء منظومته النقدية في نقد العقل الخالص أو في المقدمة لكل ميتافيزيقا، أو سواهما من مؤلفاته بعد النقد، واستطاع أن يصطنع التحليل الميتافيزيقي، والتركيب، والمنهج الافتراضي، والبرهاني، والاشتراطي أو الترنسندنتالي، وبرهان الخلف.

---

[1]- امانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة متبوع بأسس ميتافيزيقا الأخلاق، مرجع سابق، ص 268.

[2]- المرجع نفسه، ص281.

[3]- المرجع نفسه، ص268.

[4]- عبد الله محمد علي الفلاحي، نقد العقل بين الغزالي وكانط، مجد المؤسسة الجامعية، بيروت، ط1، 2003، ص234.

أ- **التحليل الميتافيزيقي:** الذي اتخذه في نقد العقل الخالص إذ جمع بين الميتافيزيقي الخالص، والتجريبي الخالص. وعلى ذلك جمع بين الحساسية و الفهم.

ب- **الافتراضي:** لجأ كانط إلى ما يسمى بالاستنباط الترنسندنتالي بتصورات الفهم الخالصة، وتنظيمها في صورة مقولات، وهي مسألة افتراضية كثيرا ما اعتمد عليها كانط في طروحاته.

ج-**البرهاني:** يبدأ في النظر في طبيعة عناصر التمثلات في الحساسية وطبيعة عناصر التصورات في الفاهمة، وبين كيف ينتج بالضرورة عن هذه المبادئ من صفات تطبع الظواهر بطابع الموضوعية.

د-**الاشتراطي:** وهو ما يعرف بالكأنية عند كانط ويسمى المنهج الترنسندنتالي أو النقدي. استخدم هذا المنهج ردا على المنهج التمثيلي الذي تستخدمه العقلانية الدوجماطيقية.

هـ-**النقائض:** يضيف كانط برهنة غير مباشرة تتمثل في ما يسمى ببرهان الخلف، وهي دعوة متناقضة، وهي أيضا محاولة لإبطال الواقعة الترنسندنتالية وإبدالها بالمثالية الترنسندنتالية[1].

ب-خصائص المنهج النقدي:

أولى خصائص هذا المنهج، قدرته على حل المشكلة التي طرحت بصورة سؤال: كيف يمكن أن تكون الاحكام التركيبية القبلية الممكنة من جهة؟ والقدرة على المطابقة بين وعينا والأشياء التي يشكلها نشاطنا التركيبي عند الجواب على هذا التساؤل من جهة.

وثانيها، خلافا (للمنهج التجريبي والعقلاني)، ليس مثاليا مفارقا، أو يريد أن يخلق الواقع، ولكنه يحدد -أوليا شرطيا- أهم قوانين الحقائق الواقعة[2].

ثالثها، إنه منهج يمثل إنعكاسا لمذهب كانط الذي وفق بين عالم الغايات، والقيم ذات السلطة على السلوك، وعالم الطبيعة موضوع المعرفة والعلم، فاستطاع تجاوز الفرق بين

---

[1]- عبد الله محمد علي الفلاحي، نقد العقل بين الغزالي وكانط، مرجع سابق، ص ص 193-194.

[2]- عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار المعارف، القاهرة، 1967. ص 63.

العالمين، وقدم تسويغا فلسفيا نهائيا للعلم النيوتيني، وإقامة المثل العليا بوصفها مبادئ منظمة توجه العمل والسلوك على العقل العملي.

رابعها، فهو ثنائي الأبعاد: حين رفض أحادية الدوجماطية والارتيابية التجريبية، وبحسب كانط أن منهجه هو الطريق النقدي الذي يقف بين (ولف–هيوم) وأنه الوحيد الذي لا يزال مفتوحا وأنه يتطلع على المبادئ بعيدا عن الصرامة في اتخاذ الطريق العقلي أو العلمي. ومن جهة ثانية، فهو ثلاثي الخطوات –بحسب هيجل– الخطوة الأولى من عمل الفهم، والثانية من عمل العقل السلبي، والثالثة من عمل العقل الإيجابي.[1]

[1]– إمام عبد الفتاح إمام، المنهج الجدلي عند هيجل، دار التنوير، بيروت، ط3، 2007، ص 69.